تأويل الخطاب العقلاني العربي
عند محمد عابد الجابري

محمود حمدان سعيد جادالرب[١]

ملخص

يعد تأويل الخطاب العقلاني عند محمد عابد الجابري من أهم الموضوعات التي ناقاشها واهتم بها؛ وتظهر أهميه هذا الخطاب عند محمد عابد الجابري في تعدد الموضوعات التي تندرج تحت هذا الموضوع والتي ترتبط به: كآليات التحليل المنطقي لنقد العقل العربي خاصية النقد والمنهج التفكيكي، كما تظهر أيضا أهميته تأويل هذا الخطاب العقلاني الي اكتساب رؤية جديدة واضحة المعالم حول الأفكار والقواعد التي تؤسس لفكر عربي يتماشى مع خصوصية المجتمع العربي الإسلامي. وأيضا التعرف بشكل أكبر علي جوهر الآليات التي تخص الفكر التأويلي عند محمد عابد الجابري.

Hermeneutics of the rational Arab discourse according to Mohamed Abed al – Jabry's

Abstract:

The interpretation of a rational discourse according to Muhammad Abed Al-Jabri is one of the most important topics that he discussed and paid attention to. The importance of this discourse appears to Muhammad Abed Al-Jabri in the multiplicity of topics that fall under this topic

١) باحث بكلية الآداب، جامعة الفيوم قسم الفلسفة.

(ISSN: 2536 - 9555)

and which are related to it: such as the mechanisms of logical analysis for the criticism of the Arab mind, the characteristic of criticism and the deconstructive method, and its importance also shows the interpretation of this rational discourse to acquiring a new and clear vision about the ideas and rules that establish For an Arab thought consistent with the peculiarity of the Arab Islamic community. And also get to know more about the essence of the mechanisms related to the hermeneutic thought of Muhammad Abed Al-Jabri

مقدمة:

يعتبر الخطاب العقلاني العربي اليوم هو حقيقة وجود يحمل في ذاته تناقضات العصر الذي يحياه، الشيء الذي حمل الفكر العربي منذ نهاية القرن الماضي إلى محاولات كثيرة خاصة بفلسفة التأويل لتجاوز واقعه من خلال تأويل العقل العربي بإعتباره ماضياً متخلفاً غير مساير لما يحياه، وذلك باستلهامه مفاهيم من الفكر الأوروبي ليتمكن من التوفيق و إقامة التوازن بين واقعه وواقع مغاير له، انطلاقا من أنهما لحظتان فكريتان مختلفتان، الأمر الذي يجعلنا نتساءل ما هي محاولات الجابري لتأويل الخطاب العقلاني العربي؟ وبالتالي سوف نوضح في هذا البحث محاولة تأويل الجابري للخطاب العقلاني العربي من آليات التحليل والبنية المنطقية في نقد العربي الإسلامي، الذي تتضح في طياتها تأثيرا واضحا للبنية المنطقية في تفكيك بنية العقل العربي عند الجابري.

وتتضمن اشكالية البحث هذه التسأولات:

ما هي آليات التحليل المنطقية ومفهوم النقد عند الجابري؟ وما هي علاقة خاصية النقد والمنهج التفكيكي بالخطاب العقلاني عند محمد عابد الجابري وللإجابة علي هذه التساؤلات فقد ناقش الباحث آراء الجابري في هذه القضية من خلال نقطتين:

الأولي بعنوان: آليات التحليل لنقد العقل العربي عند محمد عابد الجابري.

الثانية بعنوان: النقد والمنهج التفكيكي عند محمد عابد الجابري.

أهمية الدراسة:

*دراسة فلسفة التأويل التي قدمها محمد عابد الجابري.

*التعرف بشكل أكبر علي جوهر الآليات التي تخص الفكر التأويلي عند محمد عابد الجابري.

أولاً:آليات التحليل لنقد العقل العربي عند محمد عابد الجابري:

إن البحث في تفسير وتأويل العقل العربي وفي آلية اشتغاله هو السمة الأساسية التي طبعت مشروع الجابري الفكري، والأدوات المنهجية التي اعتمدها ما هي إلا وسيلة من أجل بلوغ هذه الغاية، وما يمكن ملاحظته أن العقل بجانب انه " أساس مهم وضروري في التصديق برسالة الإسلام وفي الإيمان برسوله "(١) إلا انه بحد ذاته ليس موضوعا للبحث والتنظير، فقد اهتم به من زاوية ابستيمولوجية ولغايات محددة، " ولعل محمد عابد الجابري أن يكون من أبرز وأعمق المفكرين العرب الذين يتبنون هذا النقد الإبستمولوجي للفكر العربي"(٢)، لقد اختار النقد عنوانا لمشروعه وحصر حدوده ضمن الثقافة العالمية، التي بدأت مع عصر التنوير في الثقافة العربية، وقد وضع مشروعه تحت عنوان نقد العقل العربي وقد جاء هذا العنوان في أجزاء مختلفة كدراسته التحليلية النقدية في الخطاب العربي المعاصر، وإبراز السياق الإيديولوجي الذي تكون في العقل العربي، وكذا تبيان

(ISSN: 2536 - 9555)

النظم المعرفية المكونة للثقافة العربية. " إذا أنا أقدمت على العمل في مشروع يتناول بالتحليل والنقد نظام القيم في الثقافة العربية. إن المنهج النقدي الإبستمولوجي الذي اتبعته في الأجزاء السابقة من نقد العقل العربي كانت تبرره وتقبله المادة التي تعاملت معها من حيث إنها مادة منظمة مبنية."(٣)

وبالتالي يقصد الجابري من هذا أن هناك أسباب عديدة جعلته ووضعته أمام تحدي النقد ودفعته إلى خوض مغامرته التأويلية النقدية للنص وذلك لان " التحقق بظاهر النص لا يتم إلا بفهمه "(٤)، لذا حاولنا أن نجمعها في نقطتين: تتمثل الأولى في التساؤل المستمر عن أسباب الركود في الثقافة العربية وامتناعها عن التطور كما هو الشأن في الحضارة الأوروبية، وأما النقطة الثانية فتتلخص في عدم اقتناعه بأنماط الخطاب العربي المعاصر البعيدة عن النقد الحقيقي والتي يرفضها في كثير من الأحيان، لأنها لم تقم على المنهج الإبستمولوجي البناء، لذا نجده يصر على تحديد الأسباب التي أدت إلى فشل الثقافة العربية في إعادة التجديد لتحقيق المشروع النهضوي كما حصل في أوروبا، أيضا إنه يؤكد على مراجعة وانتقاد القراءات والتأويلات المعاصرة لأن طبيعتها كانت إيديولوجية ظرفية لا ابستمولوجية.

لا شك أن الجابري ليس أول من تساءل عن أسباب الركود والجمود في الفكر العربي، " فهو يحاول التساؤل عن عدم تطور أدوات المعرفة، في الثقافة العربية خلال نهضتها في القرون الوسطى، إلى ما يجعلها قادرة على إنجاز نهضة فكرية وعلمية سريعة التقدم"(٥) وهو يقصد بالنهضة الفكرية السريع على غرار ما حدث في أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر، إن طرح مسألة التأخر والتخلف على المستوى الابستيمولوجي يمكن عده الإطار الصحيح للبحث بالنسبة لهذا التراجع، " لذا لا بد لنا من تحليل الخطاب الإيديولوجي واللاهوتي ونقده"(٦)، أي إننا نحن بحاجة إلى تجديد لاهوتي، وهذا التجديد يعني نقد اللاهوت الموروث، وعملية النقد

هذه يجب أن تطال كل الأديان، ورسالة المثقفين أيا كانوا أو في أي وسط يعيشون الموروث.

وبالتالي فإن عملية النقد هذه إذ يجب التوجه مباشرة إلى العقل العربي الذي بدأ يعرف ركودا لم يكن معروفا والتخلي عن دوره الرئيسي في إحداث هذه الرجة الفكرية إن صح التعبير، " فالأزمة عندهم إنما ترجع إلى جمود الفكر أو العقل العربي واستناده إلى النموذج السلفي والقياس الفقهي الذي يقوم على قياس الغائب على الشاهد، وإنكار مبدأ السببية الموضوعية إلى غير ذلك، وبهذا يكتفون بتفسير وتأويل أزمة الفكر العربي تفسيرا ابستمولوجيا خالصا بمكونات بنيته نفسها، وثوابتها المتصلة منذ عصر التدوين حتى عصرنا الراهن."(٧)

فمن هنا سوف تأخذ قراءة الجابري معنى تكوينيا، ومن ثم سيعمل على تفكيك بنية العقل العربي، قصد الكشف عن أسباب التخلف و فقدان القدرة على مسايرة التقدم الحضاري في مختلف المجالات، لكن في البداية نود الإشارة أن بداية المشروع النقدي عند الجابري، جاءت متزامنة مع تأويله للخطاب العربي المعاصر. إن من يطلع على مؤلفات الجابري يلاحظ نوعا من عدم الموافقة على آلية الخطاب العربي المعاصر في مختلف تجلياته، يظهر ذلك من خلال عملية النقد الذي وجهه للعقل العربي في مختلف تجلياته، أو عن طريق الشواهد والاستدلالات التي تثبت لنا الخطاب الفكري الذي أراد الجابري تشييده من خلال عملية التحليل والنقد الابستمولوجي، " أعني الأهمية التاريخية للبحث والنقد الابستمولوجي في الفكر العربي المعاصر"(٨)، انه اهتم بدراسة هذا الخطاب وتفكيكه، وتحليل آليات النقد المنطقي المكونة لبنية العقل العربي على مستوى الموضوع أو المنهج.

إن محاولة الوقوف عند فشل المشروع النهضوي العربي في تحقيق أهدافه، وتزايد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، قد دفع بالجابري إلى

(ISSN: 2536 - 9555)

البحث عن تأويل أسباب التراجع والقيام بقراءة تحليلية، وبناء على هذا التصور للعقلانية يرى الجابري أن: "الخطاب النهضوي تحدث عن كل شيء. ولم يتحدث عن العقل، لذا لزمت المراجعة، مراجعة العقل الناقد "(٩) ويعتبر هذا راجع إلى كون العقل العربي يعد امتدادا لعقل ما قبل النهضة، ومادام الأمر كذلك، فإن القطيعة معه ضرورية وذلك من أجل تأسيس العقلانية. يقول: "ما لم نؤسس ماضينا تأسيسا عقلانيا، فلن نستطيع أن نؤسس حاضرنا أو مستقبلنا بصورة معقولة "(١٠) ويعتبر هذا هو السبب الرابع في الاشتغال بمسائل التراث والحداثة.

ونستنتج من ذلك أن هذه القراءة التحليلية تهدف إلى إبراز نقائص الخطاب العربي المعاصر للكشف عن أهم التناقضات التي يحملها هذا الخطاب، ويعمل على تفكيك البنية المكونة له، لأنه يحمل علامات العقل الذي ينتجه، لذا "يرى الجابري أن ميدانا واحدا لم تتجه إليه أصابع الاتهام بعد، وبشكل جدي صارم، هو تلك القوة أو الملكة أو الأداة التي بها يقرأ العربي ويرى ويحكم ويفكر ويحاكم إنه العقل العربي ذاته."(١١) ومعني ذلك أن الجابري صعوبة تأصيل الفلسفة أو إنتاج فلسفة معاصرة، مادام العقل مغيبا على الساحة الفكرية، يشير الجابري إلى ضرورة الفصل في مجال الخطاب الفلسفي بين المحتوى المعرفي والمضمون الإيديولوجي، فالفلسفة الإسلامية كان لها محتوى معرفي ينتمي بشكل أساسي إلى الفكر اليوناني.

ولذلك يتضح أن من خلال ما سبق أن الجابري يرجع مسؤولية الفشل الأكبر، الذي عرفه الخطاب العربي المعاصر لما يسميه بمهمة النموذج السلف أي سيطرة النقل على العقل، أي أنه لم يستطع التخلص من هذه المناهج التي تجعل العقل مقيدا بمرجعية دينية، وإن كان العقل العربي لا يناقض قيم ونصوص الدين الإسلامي، يقول العقاد: " وهي أسئلة لا جواب لها، في غير عقيدة دينية، تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة إيمانه بغيبها، تجمع له زيدة الثقة بعقله وزيدة

الثقة بالحياة حياته هو وحياة سائر الأحياء"(١٢)، وإن كان الخطاب الديني في مضمونه ومنهجه لم يصطدم بالعقل، بل كان منفتحا أكثر، فجاء الخطاب المعبر عن هذا الواقع مرتكزا على هذه الإمكانيات الذهنية المجردة بدلا من استناده إلى المعطيات الواقعية.

إذا كان النموذج السلف يمثل الذاكرة أي المعارف والمدركات والخبرات السابقة و يشكل المرجعية الأساسية بدل العقل، فاستعادته قد لا تتطلب جهدا عقليا، لذلك يقول الجابري " فالذاكرة تقوم باستحضار الماضي كما حدث دون تحريف ولا تشويه، لكي يتم إعادة بنائه وتطويره"(١٣) فعملية الاسترجاع والاستحضار لا تكون آلية.

إلا أن مسألة عقلنة الدين قد طرحت في الفلسفة الإسلامية بين مدرسة أهل النقل وأهل الرأي في تأويل وفهم وإدراك نصوص الشارع الحكيم، لأن الإمام الشافعي المتوفى عام٢٠٤ هـ ألف كتابه الرسالة لإزالة الخلاف في فهم نصوص الشارع الحكيم، فهناك من المستجدات الحضارية التي أملت على العقل الإسلامي ضرورة البت فيها وتكييفها مع حاجات المجتمع الإسلامي وفق منطق عقلي يتفق وروح الخطاب الديني، " إن الوصل والفصل الفلسفيين بتوسط الكلام والتصوف، يبدوان وكأنهما سعي إلى إيجاد الفلسفة الملائمة لما ينتج من وضعية التفاعل بين، في الفكر الفلسفي بدوافع مستمدة من الفكر الديني للملاءمة، بدوافع مستمدة من الفكر الفلسفي للغاية نفسها، وهو ما ولد ظاهرة غريبة جعلت الفكر الديني متفلسفا أكثر من الفكر الفلسفي، والفكر الفلسفي متدينا أكثر من الفكر الديني."(١٤)

ومنه أصبح الخطاب العربي الحديث والمعاصر لا يتحدث باسم " إن العقل يفكر استنادا على بعض المقاييس والمعلومات السابقة، ومن الصعب أن يفكر العقل على أساس غير مألوف."(١٥) أي أن العقل هو مجمع أدوات الإدراك وهو

(ISSN: 2536 - 9555)

مصدرها في الفهم والتفسير لكل غامض وغير ومألوف، فوظيفة العقل هو الانتقال من المعلوم إلي المجهول" فان حد العقل هو أن ينتقل الإنسان من معلوم إلي مجهول، من شاهد إلي غائب، من ظاهر إلي خفي."(١٦)

وبالتالي فإن ما يمكن الإشارة إليه هنا أن الجابري لا يعني تأويلية للنموذج السلف التراث العربي الإسلامي فقط وإنما أيضا الفكر الأوروبي الذي ساد القرون الوسطى، فالمفاهيم المستعارة من المرجعيتين لا تعبر عن الواقع المعاش، لذلك كان الانقطاع بين الفكر وموضوعه، الأمر الذي يؤدي إلى جعل الخطاب المعبر عنه " خطاب تضميني وليس خطاب مضمون."(١٧)

كذلك لا يخفى علينا أن فشل الخطاب العربي الحديث والمعاصر، والذي يكمن في محاولة إخفاء الضعف المعرفي والثغرات المنطقية الظاهرة التي تعود في أساسها للتقيد ببعض المضامين الإيديولوجية، لذا كانت سيطرة الطابع الإيديولوجي واضحة على هذا الخطاب، فالصراع الإيديولوجي الذي ميز الساحة الفكرية العربية المعاصرة، يعكس النزاع الحاصل بين مرجعيتين، هناك من جهة السلفي الذي يفكر ضمن الحقل المعرفي الديني في الحضارة العربية الإسلامية، وهناك من جهة أخرى الليبرالي والماركسي اللذان يفكران خارج الفكر العربي، ومنه يقول الجابري: " فإننا في العالم العربي نفتقد إلى الحد الأدنى من المعرفة العلمية الموضوعية بالواقع، الحد الأدنى الذي يشكل القاعدة التي تقوم عليها كل إيديولوجيا مطابقة، والذي يجعل الصراع صراعا إيديولوجيا فعلا، وليس كلا من الإيديولوجيات التي تعرض نفسها على الساحة."(١٨)

فالجابري يحاول الوقوف في سياق تأويله عن أسباب فشل الخطاب العربي الحديث والمعاصر، الوقوف عند مسألة هامة تكمن في اعتماد هذا العقل العربي على آلية القياس الفقهي، فحسب الجابري أن وضع سلطة مرجعية خارج الواقع واعتباره بمثابة النموذج السلف، فالعقل يضطر لقياس الفرع على الأصل، أي

القضايا المستجدة على صعيد الواقع، على أساس أن القياس لا يكون حرا بل يكون نابعا من أدلة شرعية، " فهذه الآلية تستخدم فقط في تفسير وتأويل العالم، بل إنها تفرض نفسها على الذهن العربي حتى في الحالات التي يتجه فيها التفكير إلى تشييد إيديولوجيا تغيير العالم العربي."(١٩)

مما سبق يتبين لنا أن رفض الجابري لآلية القياس الفقهي، لا كما ظهرت في الخطاب العربي الحديث و المعاصر، لكن في بنية العقل ذاته، لأنه كان بعيدا عن التحليل والمراجعة النقدية، لذلك كانت معالجة الخطاب العربي المعاصر لقضاياه خارج الواقع، واكتفى بتقديم خطاب يجمع بين الأصالة والمعاصرة، أو الدين والدولة، أو الإسلام والعروبة، أو الشورى والديمقراطية وغيرها من المفاهيم التي شغلت هذا الخطاب، وبعد أن مهد الطريق لإطلاق مشروعه النقدي، فقد توجه إلى البحث عن جذور خصائص هذا الخطاب في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، لذا فهو يحاول البدء بحالة العقل الدينامية، والتعرف عليه من خلال القضايا التي يعالجها لإبراز الخفايا والعيوب، لنقد وتمحيص هذا العقل الذي صدر عنه هذا الخطاب.

ثانياً:النقد والمنهج التفكيكي عند محمد عابد الجابري:

إن محاولة الوقوف عند مفهوم النقد لدى الجابري، يتطلب منا العودة لمسألة التراث وتحديد مفهومه وكيفية التعاطي معه في الفكر العربي المعاصر، فإن التراث قد أصبح بالنسبة للوعي العربي المعاصر، "عنوانا على حضور الأب في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر، ذلك هو مضمون التراث الحي في النفوس الحاضر في الوعي."(٢٠)

أي إن مفهوم التراث في الفكر العربي المعاصر، يبدو واحدا من أكثر المفاهيم تجريدا وإثارة المبحث اللبس والإبهام، فنحن لا نستخدم التراث استخداما واحدا والمعنى نفسه دوما، " نحن نستخدم التراث على أنحاء متعددة متفاوتة في الدقة

(ISSN: 2536 - 9555)

والوضوح"(٢١)، ومعني ذلك انه يستخدم تارة للماضي بكل بساطة، وتارة العقيدة الدينية نفسها، وتارة الإسلام برمته وعقيدته وحضارته، وتارة التاريخ بكل أبعاده ووجوهه ومنه إلى إثارة إشكالية العلاقة بين الماضي والحاضر، التي تتجلى في مسألة الأصالة والمعاصرة.

لذلك لا توجد نصوصا خاصة في فكر الجابري تتعلق بهذه المسألة أي مفهوم النقد والمنهج النقدي، لذلك نجد الجابري يفضل ممارسة عملية النقد بدل التفكير فيه، وتحديد الشروط التي يتم فيها مع ذكر الأهداف، التي تحقق أهميته بحكم أن النقد خاصية فلسفية، يمارسها الفيلسوف عبر مشروعه الفكري وإبداعاته.

إن خاصية النقد عند الجابري مرتبطه أشد الارتباط بموقفه من التراث، وذلك من خلال تجديد فهمه الخاص أو قراءته وتأويله له، " والحق أن ثقافتنا الراهنة محكومة بهذا الآخر وتابعة له بقدر ما هي محكومة وتابعة لثقافتنا القديمة أعني تراثنا العربي الإسلامي، ونحن نعتقد أن التبعية للآخر لا يمكن أن تتم إلا من خلال العمل من أجل التحرر من التبعية للماضي، ماضينا نحن ومع التحرر من هيمنة التراث."(٢٢)

فالجابري هنا يشابه أركون في قراءتهما حول مسألة التراث، وفي كيفية اختيار المنهج المناسب من أجل فهمه، لكن ما يفرق بينهما هو تحديد التراث، بين ما هو كتابي وشفاهي، وكذا رسم الحدود والأهداف المنتظرة، ومنه النتائج المتوصل إليها.

يجب أن أوضح فكرة أساسية تتعلق بالجابري وهو اهتمامه بالتراث الذي لم يكن من أجل التراث، وإنما في سبيل الحداثة التي يطمح إليها، التي تنبع من عمق حياة الإنسان العربي وتعبر عن مقومات شخصيته، فتجميع التراث في الحقيقة له هدف تحديثي معاصر، فنقد العقل الأوروبي من قبل الفكر العربي والثقافة العربية يعد خطوة نحو الولوج في الحداثة في تاريخها، "لذلك اعتبر

الجابري أن نقد العقل العربي، هو مرحلة مهمة من عملية التحضير لولوج الحداثة."(٢٣)

فالتفسير العام والشامل الذي اقترحه الجابري لتأويل التراث، يشمل في الحقيقة التراث المعنوي كفكر وسلوك، والتراث المادي الذي يشمل الآثار والتراث القومي، أي يحضر في الإنسان من ماضيه. يقول الجابري في هذا الصدد " التراث هو كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي، سواء ماضينا أم في غيرنا، سواء منه القريب أم البعيد."(٢٤)

نجد الجابري يلفت انتباهنا إلى كيفية حضور الماضي في الحاضر، وإلى الكم الهائل من مقومات الثقافة الإسلامية، المرتبط بالماضي على نحو وثيق، إن التراث حي في النفوس، وحاضر في الوعي والذاكرة، قد يمتد تأثيره بقوة إلى الحاضر، ونسترجعه بكل تفاصيله مع إعادة بنائه وفق ما يتلاءم ومعطيات الحاضر، حيث لا نكتفي بتكرار ما كان سائدا، لأن عملية استرجاع الماضي لا تكون آلية وإنما بكيفية واعية وواضحة، فمجموع الفكر العربي الحديث والمعاصر عند الجابري يتميز بغياب المرجعية التاريخية والموضوعية، وبالتالي قد أشاد الجابري بالخطاب النهضوي الذي يتأسس على ضرورة التخلص من سجن ما هو قديم " أي وثنية المجتر والبالي، لأن النهضة الأوروبية لم تتحقق بطريقة آلية بل اصطدمت بعوائق كثيرة على المستوى الإيديولوجي أو الديني وحتى الثقافي المنغلق تجاه الكنيسة"(٢٥)، فحينها كان الجابري يبحث في الأساليب والطرائق الممنهجة المبنية على منطق وفهم علمي واقعي، لعقلنة هذا الخطاب العربي الحديث والمعاصر والأخذ بمعركة التجديد.

ويتضح لنا أن تأويل وقراءة الجابري للتراث وتحليل الخطاب العربي، جعلته يوجه اعتراضه "فلا يوجد تفسير من غير اعتراض"(٢٦) وينتقد الوضعية التي يتعاطى معها القارئ العربي المعاصر تجاه تراثه وكيفية استيعابه في ظل غياب

(ISSN: 2536 - 9555)

لكل تعقل وفهم، فهو مطالب بالعودة إلى التراث من أجل طلب السند، بهدف من آمال ورغبات في التقدم والازدهار العلمي والعقلاني، لذلك يقول الجابري:" إنه يقرأ كل مشاغله في النصوص قبل أن يقرأ النصوص."(٢٧)

وذلك لأنه أصبح عاجزا أمام احتواء التراث وتفكيكه عبر بنيته الأصيلة، انغمس داخله وأصبح يكتفي بتقليد ما هو كائن لا أن يتطلع تجاه ما يجب أن يكون، أصيب بالضعف والعجز وفقد شخصيته واستقلاله وحريته التي يتطلع إليها، "أي لم يتمكن من نيل استقلاليته وحريته الفكرية في التعامل مع ماضيه الذي يحمل في طياته مضامين كثيرة تتعلق بهويته وأصالته."(٢٨)

وذلك لأن القارئ العربي حسب الجابري وجد نفسه محاصرا تجاه ماضي موروث عن السلف يمثل الذاكرة الجماعية الصلبة التي ترفض النقد والحفر، تلقاه منذ ميلاده كمعارف وحقائق، وأنماط تفكير خاصة، دون التجرؤ على استخدام النقد أي أخذه بمنطق التسليم والتصديق وبعيدا عن الروح النقدية، وفي هذا يقول العلامة ابن خلدون (١٣٣٢ م/ ١٤٠٦ م): " لأن الأخبار إذا أُعتمد فيها على مجرد ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب."(٢٩)

يشدد الجابري على إبراز الهوة التي تفصل الماضي عن الحاضر، لأن مسألة الأصالة والمعاصرة أصبحت تمثل إشكالية فلسفية في ثقافتنا العربية الإسلامية، تلك النظرة التي تحتكر الماضي والحاضر في مفاهيم سطحية لا ترمز للعمل والنمو والإبداع، بل إلى واقع ظل يعاني الضعف والعجز في مختلف المجالات منها الفكرية والعلمية، "إنه يرى أن الحاضر العربي يشكل مزيجا أو مجمعا غريبا تتلاطم فيه بقايا أمواج ماضينا وامتدادات أمواج حاضر غير حاضرنا، حاضر الحضارة الأوروبية ذات الطابع العالمي."(٣٠)

إن الإنسان العربي اليوم قد وقع حسب تأويل الجابري تحت وطأة التقليد، فهو مجبر على التقيد بالتراث الموروث، وإما التوجه إلى تقليد الغرب الذي أنتج الثورة العلمية والصناعية والمعرفية، إنه يفتقد إلى العقلانية النقدية، وتبني الأفكار التي لم يساهم في صياغتها وبلورتها، فيجب التعامل مع الموضوعات بمنهج نقدي، والوقوف على مضامينها والعمل على تحقيقها باعتبارها تمثل رصيدا معرفيا متنوعا، فالموقف النقدي يقتضي منا الأخذ بتاريخية و بنسبية المعرفة، لأن الروح الفلسفية والعلمية تقتضي الدقة والاعتقاد بالنسبية، فالعقلانية النقدية التي يدعو الجابري إلى تطبيقها تعني في مفهومها بالتحديد: "ممارسة عقلية تقوم على عدم التسليم بأي شيء إلا بعد فحصه، إنها موقف ضد التقليد."(٣١)

لأن التقليد يعني التسليم بالحقائق وتقبلها دون نظر وتحقيق وهذا ما يخالف في تصورنا الموقف النقدي الذي يتخذه الباحث في استقراء التراث واستنطاقه. هنا يلتقي الجابري مع أركون في مسألة إخضاع الحقائق الموروثة للنقد الذي يظهر تاريخيتها ونسبيتها، إذ أن كل ما أنتجه البشر قد دخل التاريخ وخضع لشروطه ومتغيراته، "إن من مزايا هذا العصر الذي نعيشه فيه هو أن الحقيقة المطلقة فقدت قيمتها، وأخذ يحل محلها سلطان النسبية"(٣٢). ومنه فالقراءة النقدية يجب أن تطبق بقوة من أجل الكشف عن الحقائق الخفية التي تم إلغاؤها أو طمسها، والكشف عن التصورات والمعارف التي أنتجها الإنسان في الماضي فمنها ما بقي شاهدا على وجود الإنسان.

لكن عملية النقد عند أركون "لا تشمل الفكر العربي الإسلامي"(٣٣)، وإنما ينصب على الفكر الأوروبي الغربي، وهذا ما يدعو إليه الجابري عندما يتحدث عن إعادة ترتيب العلاقة مع التراث والفكر الغربي.

يمكن أن نستنتج ما لمسناه لدى الجابري، خلال قراءتنا لنصوصه على تنوعها، هو تحقيق استقلال الذات العربية استقلالا تاريخيا يحفظ لها هويتها، ويفسح لها

(ISSN: 2536 - 9555)

المجال للإبداع والدخول في ركب الحضارة والازدهار، فهذا الاستقلال لا يمكنه أن يتحقق دون الالتزام بالمشروع النقدي والانخراط فيه، أي القيام بنقد العقل العربي في تكوينه وبنيته، وفي مجاله السياسي والأخلاقي، وذلك بعد مراجعة الخطاب العربي المعاصر مراجعة نقدية، تبرز الثغرات التي يتضمنها والأخطاء المنهجية التي وقع فيها. لقد أراد الجابري بعث الروح النقدية في محاضراته وكتبه لأنها كانت الأقرب للحداثة، وهو يدرك أن "غياب هذه الروح يجعل الكذب ممكنا على التاريخ مثلما أن التحذير الإيديولوجي، هو الذي يجعل الكذب على الأحياء ممكنا."(٣٤)

ومنه فقد اكتسب الجابري من خلال تأويله للعقلانية اعتماده على النقد ممارسة فلسفية فعالة، فكرس جهده للحداثة المنشودة، وبذلك يكون الجابري قد مهد الطريق للتعاطي مع التراث، ونقده في إطار ما يحقق الأهداف التي تجسد الروح النقدية، وعدم التسليم بما هو معطى،" والنتيجة التي يخلص إليها الدكتور الجابري في تتبعه للحقل الدلالي لكلمة التراث، أن التراث بمعنى الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي كما تشكل مضمونه في الخطاب العربي لم يكن حاضرا لا في خطاب أسلافنا، ولا في حقل تفكيرهم، كما أنه غير حاضر في خطاب أية لغة من اللغات الحية المعاصرة التي نستورد منها المصطلحات والمفاهيم الجديدة علينا."(٣٥) وهذا يعني أن مفهوم التراث كما نتداوله اليوم، إنما يجد إطاره المرجعي داخل الفكر العربي المعاصر ومفاهيمه الخاصة، وليس خارجها.

لأنه أراد أن يجعل من تأويله للتراث مادة معرفية، تعمل على دمج التراث في ركب الحضارة العالمية، وإخراجه من الدائرة الضيقة المتعصبة الذاتية التي تجعله محنطا غير قابل للتحديث والمساءلة.

خاتمة البحث:

نتوصل في نهاية هذا البحث إلي أن الجابري قد حاول تفكيك بنية العقل العربي وقدرته على استخدام آليات التحليل المنطقي في عملية النقد الإبستمولوجي لا الإيديولوجي، وتأسيس بنية منطقية متكاملة في التعامل مع الفكر العربي المعاصر، تسعي إلي تأويل الخطاب العقلاني لاكتساب رؤية جديدة واضحة المعالم حول الأفكار والقواعد التي تؤسس لفكر عربي يتماشى مع خصوصية المجتمع العربي الإسلامي. أيضا يعتبر تأويل خطاب العقل العربي وما يحمله من آراء وقيم وتصورات حول قضايا المجتمع العربي الإسلامي، قد شكلت جوهر البحث والنظر في الفكر العربي الإسلامي انطلاقا من بنية منطقية متوازنة، لأن المنطق هو الصناعة الفكرية التي تدرب العقل البشري على التفكير الصحيح، مثل هذه الدراسات تعكس جميعها الرغبة لحاجة ماسة ضرورية بالنسبة للمفكر العربي المعاصر في تشكيل وصياغة رؤية جديدة، تخلصنا من الإشكالات التي وضعنا فيها الرؤى التي كانت سائدة في تراثنا، وإضفاء الطابع النقدي التحليلي على العقل وتأويله وقراءته قراءة منطقية وعلمية خالية من الذاتية.

الهوامش:

(١) أحمد عرفات القاضي، مدخل لدراسة الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، مكتبة الجامعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولي، ٢٠٠٩م، ص ٥٩.

(٢) محمد أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، بيروت، ط ٢،١٩٩٨م، ص٢٩.

(٣) محمد عابد الجابري، نظام القيم في الثقافة العربية، مسرح "الحكمة الخالدة" ومسألة النمذجة، مجلة فكر ونقد، السنة الثانية العدد ١٩، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، مايو١٩٩٩م، ص٦.

(ISSN: 2536 - 9555)

(٤) نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م، ص ٢٨٩.

(٥) علي أحمد، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٩٧م، ط١، ص٨٤.

(٦) مروة كريدية، أفكار متمردة في الفكر والثقافة والسياسة، ط١، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، ٢٠٠٨م،ص٢٩.

(٧) محمد أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، ص٢٩.

(٨) محمد عابد الجابري، من ملفات الذاكرة الثقافية، مواقف إضاءات وشهادات، الكتاب الواحد والعشرون، دار النشر المغربية أديما، ط ١، ٢٠٠٣م، ص٩٠.

(٩) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٥، ١٩٩٤م،ص ١٧٥.

(١٠) الزواوي بغورة، إشكالية المرجعية الفكرية في الخطاب الفلسفي العربي المعاصر محمد عابد الجابري نموذجا، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٩، العدد ٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، مارس ٢٠٠١م، ص٢٢٨.

(١١) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص٨.

(١٢) أحمد عبد الرحيم السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية دراسات في الإسلام، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ص١٥.

(١٣) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص١٣٧.

(١٤) أبو يعرب المرزوقي، إصلاح العقل في الفلسفة العربية، من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى إسمية ابن تيمية وابن خلدون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١٩٩٧،٢م، ص٤٩.

(١٥) علي الوردي، مهزلة العقل البشري، محاولة جديدة في نقد المنطق القديم، ط٢، دار كوفان للنشر، توزيع دار الكنوز الادبية بيروت،١٩٩٤م، ص١٣٥.

(١٦) زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة التاسعة، ١٩٩٣م، ص ٣١١.

(١٧) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص ١٩٨.

(١٨) المصدر السابق، ص ٢٠١.

(١٩) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص ٢٠٢.

(٢٠) أحمد محمد سالم، إشكالية التراث، في الفكر العربي المعاصر دراسة نقدية مقارنة بين حسن حنفي وعابد الجابري، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ص٣٥.

(٢١) فهمي جدعان، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، دار الشروق عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٥م، ص١٦.

(٢٢) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ص٤٣.

(٢٣) نائله أبي نادر، التراث والمنهج بين أركون والجابري، ص ٥٥.

(٢٤) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩١م، ص ٤٥.

(٢٥) راجح عبد الحميد الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، مكتبة المِؤيد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٢م،ص ٩٨.

(٢٦) بول ريكور، صراع التأويلات، ترجمة منذر عياشي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٣٧٢.

(٢٧) محمد عابد الجابري، نحن والتراث، ص٢٣.

(٢٨) جون كوتنغهام، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط ١، ١٩٩٧م،ص ٩٨.

(ISSN: 2536 - 9555)

(٢٩) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ضبط المتن خليل شحادة، ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣١، ٢٠٠١م، ص١٣.

(٣٠) محمد عابد الجابري، نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص ٣٣.

(٣١) محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، سلسلة الثقافة القومية عدد ٢٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م، ص٢٨٥.

(٣٢) علي الوردي، مهزلة العقل البشري، ص ١٣٤.

(٣٣) محمد أركون، نحو تقييم واستلهام جديدين للفكر الإسلامي، الفكر العربي المعاصر مجلة العلوم الإنسانية والحضارية، العدد ٢٩، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢.

(٣٤) محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ص ٢٩٧.

(٣٥) زكي الميلاد، الفكر الإسلامي المعاصر وإشكالية التراث، الكلمة، مجلة فكرية ثقافية إسلامية، تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، العدد ٢٥، السنة السادسة، خريف ١٩٩٩م، ص ١٣.